لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ١٠ من السنة ٧ عن شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٩

ترجمة فنان عراقي

L'artiste Joseph Yaghiâ.

لما كان واجب الوطنية الصادقة يحتم على الكاتب او المؤرخ ان يخلد ذكر من برز من ابناء الوطن في فضل او فضيلة او نبغ في علم من العلوم او فن من الفنون، رأيت ان لا مندوحة لي عن ان آتي بترجمة فنان عراقي توفاه الله قبل مدة قصيرة من الزمن ألا وهو المأسوف عليه يوسف بن انطون يغيا.

١ — منشأ اسرته ونسبه

في غضون الربع الاخير من القرن الثامن عشر قدم الى بغداد من ديار بكر شاب ارمني كاثوليكي اسمه يغيا (١) (اي ايليا) بن بدروس اصلان (ارسلان) وكانت مهنته البيع والشراء، فضلا عن قيامه باشغال تجار بغداد الكبار وامور تجارتهم في طوقاة والاستانة وغيرهما من البلدان وذلك لحسن شهرته في النزاهة

١) كان له اخ في الاستانة اسمه قسطنطين وكان يتعاطى التجارة مع اهل بغداد وكان له ابن اسمه خاجادور وثلاث بنات وهن اوصناديروهي ونا كوهي وبنا كوهي اقترن في غلطة (في الاستانة) انطون بن نعمان دنحا البغدادي وهي والدة لواو امراة فتح الله سليمان فرج وقد توفيت تا كوهي في بغداد في ٢٠ ايلول سنة ١٨٤٧ وكان قسطنطين قد توصل الى ان تحاميه دولة اجنبية ومهنته الساعاتية ما عدا التجارة.

والصدق والاستقامة والهمة العالية . وقد اتى ذكره بمديح وثناء في الرسائل القديمة التجارية .

وتأهل في بغداد بلوسية ابنة قسطنطين بن حنا دانا الأسدي الكلداني وكان قسطنطين من كبار تجار الزوراء المعدودين حتى كان يضرب المثل بثروته .

وتوفي يحيا في احد أسفاره الى الاستانة مخلفاً ثلاثة بنين وهم يوسف جان وبتراك وانطون وابنة او ابنتين وهما سيدي وكترينة واحداهما ترهبت في دير الروميات الكاثوليكيات في جبل لبنان .

فيوسف جان توفي في بلاد فارس بلا عقب والارجح ان بتراك ايضا توفي هناك عن امرأته كترينة ابنة نعمان بن دنحا وابنته لوسي التي تزوجها بشوري ابن فرنسيس تيسي وبعد وفاة بتراك صارت كترينة امراته لسليمان بن داود الجوخجي وذلك في ٤ ايار ١٨٣٥ .

واما انطون فتزوج اولا بمدولة الحلبية وبعد وفاتها تزوج سنة ١٨٣٦ بسارة ابنة يوسف حبش التاجر الكلداني ورزق منها تاكوهي سنة ١٨٤٠ ويوسف الذي نحن بصدده وقد اعتمد في ١٩ آذار سنة ١٨٤٤ وتزوج يوسف هذا في ٧ ك١ سنة ١٨٧٣ بربجينة بنت يوسف غنيمة المعروف بالشاهبندر . وبعد ان رزق منها ابنين وهما انطون المعروف اليوم بدير ترسيس صائغيان والثاني بهجة وابنتين وهما منيرة (التي هي اليوم عقيلة الخواجا نعمة الله بن شمعون نازو) توفي في ٢٥ نيسان من السنة الحالية ١٩٢٩ وكانت وفاة والدة في ٦ ايار سنة ١٨٧٠ وتربزية التي اختضرت .

مواهب يوسف وصفاته

اشتهر يوسف بثلاثة امور وهي الموسيقى العراقية والصياغة والنزاهة او الاستقامة .

اما الموسيقى فانه اتقنها منذ صغره من نفسه وبالنظر الى كبار اساتذتها وقد اولع بالضرب على الكمانة (اي الكمنجة العراقية) فاخذ يتعلمها اولا على وتر واحد ممدود على قرعة حتى امتاز بها على من كان يضرب على مثلها من الآلات المتقنة صنعا بل ان البارعين بها كانوا يقولون عنه : « ان اصبعه لا تخطأ »

وكان اذا عزف عليها انطقها نطقا كأن انسانا يتكلم بلسانه الفصيح فكان يثير في صدور السامعين مرة الحزن واخرى الفرح وتارة البكاء وطورا الضحك والانس . وقد جالس مجالس رجال كبار كانوا يطربون بسماع ضربه على الآلة حتى انهم ما كانوا يودون سماع كلمات غيره والطاعنون في السن يتذكرون ما كان يهيج في صدورهم حينما كان يضرب على الكمانة في الكنائس الشرقية وكان يرافقه فيها احد الضاربين على الارغن والسنطور او القانون فقال احد السامعين كنت اود ان اصم اذني حتى يبقى ما سمعته بهما ولا يخرج منهما الى ابد الدهر . وكثيرا ما كان السامعون يظهرون اعجابهم بما كانوا يسمعونه باماراث ظاهرة حسية حتى انهم كانوا ينسون انفسهم وانهم في الكنيسة حيث يجب ان يراعوا المقام وقداسته ومع ذلك كانت تغلبهم العاطفة وتأخذهم نشوة الطرب فكان يصدر منهم كل تلك الاشارات والامارات الدالة على الاعجاب بما كانوا يسمعون .

وكان من عادة الفرس في العهد التركي ان يجولوا في الطريق محافظة على الامن العام . فكانوا اذا جاؤوا الى شباك دار يوسف ترعوا له بمسامعهم فيفتح لهم النافذة ويسمعهم لحنين او ثلاثة ثم يشكرونه ويقولون له : احسنت وبارك الله فيك ونم بسلام آمنا فانا نحافظ على بيتك كل المحافظة لما زينك الله به من موهبة الاطراب . هذا فضلا عن حسن صوته فانه كان رخيما كما كان صوت والده .

ومن الآلات الموسيقية التي كان يتقن النقر عليها السنطور العراقي والقانون والجنبر (وهو نوع من الطنبور) واصول الايقاع على الدق والدنبك (والدربكة) والطبل . وكان يجيد اصول المقامات العراقية المعروفة بالقراءة وجالس كثيرا كبار القرآء (المغنين) كشلتاغ وابو حميد واسرائيل واحمد زيدان وغيرهم وكان يتأسف على ان القراءة العراقية (الغناء العراقي) ماتت بموت احمد زيدان اذ لم يبق لها ذلك الرونق البديع ، وكان يحسن بعض المقامات التي ربما لا يتقنها اليوم المغنون من جلتها الحسيني الذي كان ياخذ بمجامع القلوب اذا ما قرعه على كمانته وكان يسميها « ابنته » لحبه لها . ولم يكن يطرب للالحان السورية والمصرية بل كان اعظم طربه للالحان العراقية القديمة الحقيقية .

والحق يقال ان اغلب المقامات العراقية ان لم نقل كلها — اذا ما احسن

غناؤها وعدل بحسب الاصول الفنية العصرية يكون تأثيرها في النفوس اكثر من تأثير غيرها فيها لان فيها تنوعا متعددا لا يرى في غيرها وخاليا من وحدة السياق اذ يجد فيها الفنان بعض محاسن الموسيقى الفارسية والتركية (١) .

ومما اشتهر به ايضا الصياغة فقد اولع بها منذ صغره كما اولع بالموسيقى وتلقى هذا الفن من حنا بن توما هندي الكركوكي وكان استاذه هذا يعجب بذكاء تلميذه ومن جملة ما يحكى عنه ان استاذه عجز مرة عن إكمال حاجة فلما ضاق صدره منها القاها في الدكان ومضى الى الخارج ليروح نفسه ولما عاد الى محله وجد الحاجة قد تم صنعها على احسن وجه كان يتمنى ان تكون عليه. فلما سأل تلميذه عن ذلك قال انه اتمها بنفسه على ما اوحى اليه الفن ومنذ ذلك الحين ايقن ان هذا الحدث يكون داهية في الصناعة وكان كذلك ولما اتقن الصناعة واخذ يشتغل على حسابه اهدى باكورة مكسبه الى والده الذي كان طريح الفراش يومئذ .

وكان اذا طلبت منه اعداد صياغة شيء اتقن عمله حتى انه لا يمر في خاطره ان يذهب الى غيره وقد شوهد اناس اتخذوه صائغا لبيوتهم طول حياتهم ولا سيما كبار الحاضرة من مسلمين وغيرهم كآل الباجه جي وكان يضرب المثل بحسن صياغته فيقولون : صياغة هذا الشيء تشبه صياغة يوسف جوجو (وجوجو اسم تحبيب ليوسف) وقد جلبت هذه الشهرة اليه جماعة من شبان النصارى الذين تعلموا منه هذا الفن او بقوا عنده مدة ثم فارقوه .

ومما يزيده قدرا فوق فنيه الموسيقى والصياغة نزاهته واستقامته في جميع اعمال حياته . فقد كان رجلا « اسرائيليا لا غش عنده » وأكد مرارا عديدة انه في حياته الطويلة لم يخدع احدا بالذهب الذي يصوغه حتى انه ما كان يضع فيه ذرة من البهرج او ما يخالف الاصول المرعية عند الصاغة واثباتا لذلك

١) وكان لاصول الغناء البغدادي في استانبول شهرة بعيدة فكان يسميها الاتراك «بغداد آغازي» وما ليت تنظم لجنة تعنى بالمحافظة على الاصول البغدادية الحقيقية وترغيبها وتحسينها وقد لاحظنا ان اغلب مخارج اصوات العراقيين من الرأس بينما نرى اغلب مغني سورية يخرجون اصواتهم من حناجرهم التي تستثقلها الاذان اذ يتخللها رجفة غير مستحسنة .

كان يقول لهم هذه المصوغة الفضية التي صنعتها لكم اذا احببتم ان تبيعوها الا بعد مدة قصيرة أو طويلة فاني اشتريها بثمن الذهب الذي كلفكم وبالحقيقة كان يجري قوله بعمله .

ومن مزاياه التي خص بها دون غيره من صاغة بغداد انه اذا عين يوم لانهاء ما يطلب منه من المصوغات رفعه الى صاحبه او صاحبته في اليوم وفي الساعة اذا كان قد عين لهما الساعة ولم يخل بهذا الامر مرة واحدة في حياته كلها . اللهم إلا اذا وقع عارض لم يكن يتوقعه .

ولهذا السبب كان الشغل يتراكم عليه فكان يصوغ طول النهار وربما الى نصف الليل ولا وقت له للراحة سوى وقت الطعام والنوم .

ولم يحد عن هذه المبادئ ابدا وكان قد تلقاها وراثة عن والده وجده . وينقل عن والده انطون انه لم يوجد في عهده رجل حسن السيرة والسريرة والاخلاق المهذبة كما كان هو عليها . وقد اقتدى يوسف بوالده فكان متمسكا بدينه ومتمما واجباته ببساطة وحسن نية وتقوى ويؤكد انه لم يحد عن الطريق المستقيم في ابان شبابه ولا في حياته كلها اذ امتاز بالشغل والجد والسعي الى ان خاتته قواه في اخر ايام صباه ولهذا كسب ثروة طائلة فضلا عما ورثه من ابويه .

وقبل ان يغادر هذه الحياة كان مواظبا كل المواظبة على مراعاة اصول ديانته متشوقا الى رحيله الى الاخرة حتى انه قبل وفاته بقليل طلب من نفسه الزاد الاخير لمواجهة ربه . وطلب ان يدفن في فناء الكنيسة حتى يجلب منفذه انتباه المارين به ليصلوا من اجله .

ووقف عن نفسه ونفوس اقاربه وآله وقفا مؤبدا لصنع الخيرات . رحمه الله وابقى لنا في اولاده احسن ذخر .